جمهورية العراق
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة ديالى
كلية التربية الأساسية

دراسة في (المنهج الانطباعي الجديد) في استدراكات الناقد عبد الجبار عباس

إنعام منذر وردي
مدرس مساعد . قسم اللغة العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

النقد نشاطٌ واعٍ يقود الأعمال الإبداعية، التي هي أعمال معقدة، تحمل في قيمها الانفعالية والتعبيرية، قيماً جمالية ومعرفية، اجتماعية ونفسية؛ الأمر الذي يفضي إلى دائرة مؤطرة، يصعب على المتلقي الاعتيادي أن يدركها بسهولة.

وعلى هذا الأساس، لا بد من همزة وصل ـ ثقة ـ تقوم بتسليط الضوء على عوالم النص المعلنة والمغيبة بمستوياتها المختلفة، وتقريبها إلى المتلقي. والناقد الأدبي، هو همزة الوصل هذه، والعمل الذي يمثل النشاط الواعي، هو النقد الأدبي.

من أجل ذلك، تعددت المناهج والدراسات التي تحاول أن تحلل النصوص؛ فظهرت المناهج التي تعالج النصوص معالجة خارجية، كالمنهج: الاجتماعي، النفسي، التاريخي، الانطباعي. وظهرت المناهج التي تعالج النصوص معالجة داخلية، كالمنهج: البنيوي، الجمالي، الأسلوبي...

وقد آثرت، في هذا البحث، دراسة المنهج الانطباعي، استناداً إلى ما تداركه الناقد عبد الجبار عباس على هذا المنهج النقدي؛ ليكوِّن له منهجاً خاصاً به، وسمته بـ(الانطباعية الجديدة). وعملت على إيضاح ذلك نظرياً، وتطبيقاً، في مبحثين، اختص أولهما بالجانب النظري، والآخر بالجانب التطبيقي.

والله وليُّ التوفيق

المبحث الأول:

الانطباعية في النقد

النقد الانطباعي:

هو الانطباع . أو الأثر، الذي يعيده الناقد؛ نتيجة لقراءة نص إنشائي من قصيدة أو قصة أو مسرحية أو كتاب، كما هو في حالة حدوثه، وفي الساعة التي كان فيها الناقد، من دون إضافة أو اهتمام بأمر سواه[١]. فنحن . من أجل ذلك . لا نقرأ نقداً عن النص الأدبي، وإنما نقرأ عن انفعال الناقد بالنص[٢].

يزن الناقد، الانطباعي، النص على وفق وقعه في نفسه، وما يثيره العمل في ذهنه من معانٍ، وفي قلبه من إحساسات؛ فلكأنه يقوم . أو هو قائم فعلاً . على ((لذة الحواس))[٣].

وعلى قدر هذا الأثر، يكون حكم الناقد، وهو حكم ذاتيٌّ بحتٌ. وهم لا يرون عيباً في ذلك؛ لأن العمل الأدبي نفسه، في نظرهم، إنما هو تعبير مباشر عن الذات، لا يمكن أن يخضع لقواعد أو قوانين بعينها، بل لا يمكن تفسيره إلا بتعبير آخر لا يقل ذاتية عنه، هو انطباعات الناقد[٤].

بهذا المفهوم، حطمت الانطباعية الأسس والقواعد النقدية، ورفضت الحكم على الفن بالقوانين والمعايير التي تعتمد آلية الإدراك؛ وعلى وفق هذا التأسيس، تعني كلمة (انطباع): اللقاء المباشر، الساذج، بين النص والقارئ؛ فلا نعثر على تقويمات أو تحليلات جمالية للمفردات، والتراكيب، والصور، والبناء، واللغة، ولا نعثر على مفهوم أدبي ينبثق من خلال التعامل، ولا نقف على وظيفية الرمز ومعطياته، إلى آخر ذلك

---

[١] ينظر: مقدمة في النقد الأدبي: ٤١٥.

[٢] ينظر: النقد والناقد الأدبي (رشاد رشدي): ٨٤.

[٣] النقد الأدبي (كارلوني وفيللو):

[٤] المذاهب النقدية (د.عمر محمد الطالب): ٤٢.

من مهمات النقد. فإذا أشاح الناقد نظراته عنها؛ بحجة أنه يقدم انطباعات شخصية من جراء تأثره بالنص، وإحساسه به؛ فإنه يكون، بعمله هذا، قد انتبذ بالنص، واهتم بنفسه هو متلقياً للنص[٥].

يعمل الناقد الانطباعي على إسكات النص؛ ليتكلم هو؛ فمن هنا، إن مادة الناقد الانطباعي قراءات، أو ذكريات من قراءات مخزونة لدى متلق مثقف. وإن منهج هذه المادة، هو (اللا منهج)؛ ذلك أن النقد الانطباعي يَتَقَرَّى الاستجابات الذاتية؛ ليحتفظ بفرديته مستنداً إلى انطباعات الناقد نفسه؛ فهو نقدٌ ذاتيٌّ صرفٌ. بيد أن النقد الأدبي المدرك لأغوار النص الأدبي . لكي يؤدي مهامه السليمة الصحيحة . ينبغي أن يقوم، كما هو معلوم، على ركيزتين:

الموضوعية: لدراسة النتاج الفني على وفق آليات وإجراءات منضبطة.

والذاتية: التي تعتمد على ذوق الناقد ومتراكمه المعرفي.

إن النجاح في وظيفة النقد يرجع إلى طبيعة المادة المدروسة المتمثلة في الإنتاج الفني الذي هو عكس الإنتاج الآلي؛ لخضوعه لحقائق علمية مثبتة، تصح واقعيتها إذا صحت فكرتها الذهنية، في جميع الحالات، وعند جميع الناس. في حين أن الأثر الفني هو انعكاس للأحداث والتجارب على شخص بعينه، أو هو صدى لانفعال إنسان ما لتجربة ما. وبذلك يتبنى النقد الأدبي موقفاً وسطاً بين العلم والفن.

على وفق ذلك، فالنقد هو الصهر التام بين الموضوعي والذاتي، وفي هذا فهم للنص المبدع أو كشف عن قدرات الناقد، ومنهج الالتفاتات الذكية.

وقد أدرك الناقد عبد الجبار عباس طرفي هذه المعادلة برهافة حسه، وعمق نظره، فضلاً عن امتلاكه القدرة على إدراك العلاقات العميقة بين الظواهر؛ فذهنه يقظ مرن،

---

[٥] المذاهب النقدية: ٥٤.

يمكنه من تحليل أحكامه المبنية على ثقافة متراكمة، مع أسلوب، في الكتابة، واضح لا لبس فيه، يخفف من حدة العلمية التي يقتضيها النقد، وتستدعيها الأمانة في العرض والتفسير، ويكبح من جماح الذاتية.

فالذاتية، التي تؤدي إلى الإسقاط والإسراع، عمل أناني((أريد شيئاً في عمل؛ فالعمل جيد، وإن غاب عنه؛ فهو رديء)).. أبداً؛ فهذا ليس نقداً انطباعياً؛ إنه لون ضيق من التعامل الأناني في الأدب والنقد[٦].

إنه، بهذا، يتجاوز التعامل الانطباعي في اختلاف رؤيته ومفهومه للذات؛ فالذات، عنده، هي التي تفسح المجال إلى أقصى قدر ممكن من التعامل (الديمقراطي) مع الآثار الأدبية؛ فأنت إذ تجعل من الاستجابة الذاتية منطلقاً، لا يعني، بالضرورة، أن تكون هذه الذات معزولة عما حولها من تيارات العصر ومعارفه. إن الذات يمكن أن تلخص عصراً، وتحتوي مرحلة. وهكذا، لا تكون الذاتية منقصة في النقد الأدبي إلا إذا كانت ذاتية ضيقة لا يعنيها معرفة مكانها من العصر[٧].

على وفق ذلك، يكون التعامل الانطباعي، في تقديره، أنسب السبل إلى فحص الآثار الأدبية وتقويمها، لكن ذلك لا ينفي أن في المستطاع الاستفادة من ألوان التعامل التي تطرحها المناهج النقدية[٨]. وإلى جانب هذه النزعة الذاتية التي ينزع إليها في التعامل الانطباعي المرن، فقد أغناها بنزعته الأكاديمية التي تحرص على الدقة، والموضوعية، والإحاطة الشاملة بتفاصيل الموضوع كلها، وتقليبه على وجوهه حتى يصل إلى نتائج أو قناعات يطمئن إليها اطمئناناً كاملاً[٩].

---

[٦] ينظر: الحبكة المنغمة: ٣٠٥.

[٧] ينظر: المصدر نفسه: ٣٠٥ . ٣٠٨.

[٨] ينظر: المصدر نفسه: ٣١٢.

[٩] ينظر: المصدر نفسه: ٣١٥.

وبذلك يتحول التعامل الانطباعي، بعد تفاعله وبلورته واهتمامات الناقد، إلى تعامل (موضوعي) يتجاوز مفهوم الانطباع الأناني، حين يتمكن الناقد، برؤيته المتعددة وخبرته ومعرفته، من تحقيق ((التناسب الموضوعي بين الفنان والناقد))[١٠].

إن النقد الانطباعي الذي يقدمه عبد الجبار عباس، ليس نقدَ هَوًى شخصياً، ولا الرأي المفروض، ولا الحكم المستعجل، إنما هو، على حد تعبير الدكتور علي جواد الطاهر عن نفسه: ((إخراج الموضوعي إخراجاً انطباعياً، أو هو انطباعي من خلال الموضوعية))[١١].

وتأسيساً على هذا، يتضاد الناقد، في سياق هذا الفهم، مع الناقد الانطباعي (الرسمي)، الذي لا يصدر إلا من حالته الخاصة به، ويتضاد، أيضاً، مع المقصود البارز في المصطلح الذي يشير إلى اتساق القراءة مع حالة الانطباع النفسية. وبذلك يصبح النقد الانطباعي إبداعاً على إبداع، بحيث لا نرى صوت النص عالياً، بقدر ما نرى صوت الناقد عالياً، من هنا بدأ عبد الجبار عباس متجاوزاً المصطلح الرسمي للنقد الانطباعي، الذي يلح على إسكات النص؛ ليتكلم الناقد، بحسب حالته المزاجية، ليكون نقداً يقبض على النصوص، ومفهماً لمشكلات الإنسان، وإحاطة شاملة للأسرار الجميلة التي تمنحها القيمة التعبيرية.

وعلى وفق ذلك، يرفض عبد الجبار عباس حبس نفسه في منهج واحد، أو زاوية صغيرة ضيقة للنظر إلى النص، وأدرك إدراكاً واعياً، أن النقد الانطباعي، بمفهومه (الرسمي)، حين يعتمد الذوق الأدبي، سينتهي إلى فقدان المنهج؛ لأن النص، لديه، ينطوي على أبعاد فكرية، وسمات تاريخية، وإضافات جمالية معينة، وجذور

---

[١٠] الفن خبرة: ٥١٣.

[١١] ج . س: ٢٠٩.

(سيكولوجية) خاصة أو عامة؛ فهو، لذلك، ينظر إلى النص من الدائرة الرحبة، وقد وسم الدكتور علي جواد الطاهر ذلك بالأدبية. الأمر الذي يجعل من الناقد الانطباعي الجديد، يستعين بعلوم النفس، والاجتماع، والجمال، والفلسفة؛ من أجل الاستنطاق الحر للنصوص.

وبهذا يصبح النقد الانطباعي، بالمعنى الذي أشرت إليه، إبداعاً يوازي النص، وفي الوقت نفسه، يصبح تجاوزاً لحدود القراءة الاعتيادية من خلال توجه توظيف هذا الخطاب النقدي لجماليات وسيط، هو الكتابة؛ وبهذا يصير هذا النقد، ببساطة، لغة ثانية، وخطاباً على خطاب، وإبداعاً من طراز خاص، يسد فجوات النص. وهذا ما سنلقي عليه الضوء الآن.

المبحث الثاني:

فحص منهجه النقدي

أيها الأرق . مثالاً

سلفت الإشارة إلى منهج الناقد عبد الجبار عباس، الذي جهر به، ورأينا وسمه بـ(النقد الانطباعي الجديد). وقد آثرت، هاهنا، أن أمتحن تلفظاته ومقولاته التي خص بها منهجه؛ للوقوف على نصاعة آلياته النقدية، والإجراءات التي يمر بها على المادة الأدبية؛ من هنا وقع الاختيار على مقالته الأدبية (أيها الأرق)؛ لتكون مادة لفحص مقولات الناقد التي كان يجهر بها.

يبتدئ الناقد المقالة بوصف طبعة الديوان بالأناقة، وأنها صادرة من وزارة الإعلام، للشاعر الكبير محمد مهدي الجواهري. وكان عبد الجبار عباس في، وصفه الديوان، ناثراً يلحظ الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية، بلغة قاص مبدع، يقول ((إضمامة صغيرة متعددة الألوان والظلال... نداء حي، واستدعاء صارخ، مشوبان بترحيب تلمس في كل حرف منه حرارة الصدق، وقوة الإيمان))[١٢].

ويتحول الناقد إلى الحديث عن إدراك الجواهري لتلك المرحلة، وتفهمه إياها، وتجاوزه المراحل الأولى من الكتابة؛ فجاءت هذه القصيدة على نار هادئة، تخفق على وجدان الشاعر بألطف مما كانت، بظلال أرق، وموحيات أكثر طلاقة وانبعاثاً[١٣].

فينتقل الناقد إلى موضوعات القصائد؛ ليتناولها باتجاهين أو منهجين متمازجين، الفني والنفسي، إذ يقرر أن الطول الذي امتازت به تلك القصائد، لا يكمن في النهج الفني، وإنما يرجع إلى تجارب خاصة بالجواهري؛ لأن القصيدة ـ كما يرى الناقد ـ تقوم على هذا التفايض والاسترسال، تتدفق، عبره، خلجاتُ النفس مثقلةً بتجارب عمر مديد.

---

[١٢] مرايا جديدة: ١٥.

[١٣] المصدر نفسه.

ثم أشار الناقد إلى ظاهرة أسلوبية هي التكرار، ودلالة التكرار المعنوية، بقوله ((يختص كل مقطع بفكرة أو هاجس أو خاطرة تبدأ بنداء (يا نديمي)، الذي يمثل لازمة متكررة، أو مدخلاً موسيقياً لدورات متعاقبة في نشيد واحد))[١٤].

بعد ذلك، يتصدى الناقد إلى مرحلة الجواهري، فيسردها بلغة قاص مبدع، قادر على تصوير تلك المرحلة من دون فائض؛ ليأتي شعر الجواهري ممثلاً لتلك المرحلة، بكل مضامينها، وفي هذا احتواء للمنهج الاجتماعي الذي أساسه: أن الأديب ابن بيئته؛ ليضع ملامح للشاعر الكبير أن يكون ((صوت مجتمعه، وصوت ذاته في آن، يصنع من تناقضهما وحدة، ومن تنازعهما رؤيا منسجمة موحدة، تتخللها، أحياناً، آثار الحيرة والخيبة. ولا تناقض بين أن تكون أهمية شعر الجواهري، وشهرته على تعبيره عن واقع مرحلته تعبيراً ثورياً تقدمياً، وبين أن يرى الجواهري، في هذا التعبير، استجابة لطبيعته هو، لا ارتباطاً بحياة الجموع التي كرس لها أهم شعره))[١٥].

ومن خلال المنهج الفني، يناقش الناقد مسألة مهمة، هي نظم القصائد على وفق نظام الشطرين، والشعر الحر؛ مستنتجاً أن الشعر العمودي أمسى متخلفاً؛ لأن صغار شعرائه المقلدين عجزوا عن تقاليده، أو لأن هذه التقاليد بلغت المرحلة التي كفت فيها أن تكون ملائمة للتطور؛ فلم تعد تستطيع ملاحقة العصر، والتقاط حساسيته المعاصرة المعقدة، وإن كان من بين هؤلاء الشعراء، من واكب العصر فكرياً، لكنهم لم يواكبوه شعرياً[١٦].

بعده ينتقل ليحدد أهمية شعر الجواهري بأنه حقق هذا التوفيق هو الحفاظ على الأنماط الموروثة والسعي إلى التعبير عن جوهر اللحظة بلغة شعرية معاصرة يكلفهم

---

[١٤] المصدر نفسه: ١٥ . ١٦.

[١٥] المصدر نفسه: ١٨.

[١٦] ينظر: المصدر نفسه: ١٨ . ١٩.

التضحية ببعض ما استهدفوا تحقيقه في شعرهم كسروا نطاق الشطرين وابتكروا الأشكال والقيم الحرة الجديدة، وهذا ما أراده رواد الشعر الحر؛ لكن الجواهري استطاع أن يحقق ذلك بطريقته الخاصة التي لم يستطعها أحد من عموديي جيله الذين لم يطاوله أحد منهم ضخامة شاعرية وعلو قامة؛ فحقق . لذلك . بقدر ما يسمح تكوينه الثقافي ومؤثرات البيئة، أهم ما حققه رواد الشعر الحر: الاستجابة لحساسية العصر، ولكن في نطاق التقاليد الموروثة. فأعلن موقفه . الناقد . من هذه المسألة بأنه لا يدعو إلى التعبير عن حساسية عصر جديد بقيم شعرية موروثة، لكن ذلك امتياز حققه الجواهري في شعره.

يطرح الناقد مسألة فنية مرتبطة بالانعطافة الشعرية التي يرى تحقيقها مقياساً للشاعرية، ترتبط بظروف المرحلة. فالشعر الحر لم يكن انعطافة تاريخية مهمة إلا لأنه ظهر في المرحلة التي حتمت هذه الانعطافة ومهدت لها، واستجاب لها الشعر الحر؛ فاكتسب أهميته من تعبيره عنها[١٧].

إن تلك النظرات التي تتوزع بين المناهج الخارجية، والمناهج الداخلية، هي إجراءات نقدية، يجريها الناقد عبد الجبار عباس على مادته الأدبية.

يعمد عباس إلى عقد موازنة بين الشاعرين الكبيرين، الجواهري، مع المتنبي، إذ يمثل كلاهما الأصالة داخل تقاليد سائدة يطوعها لأغراضه؛ فلا تعود قيداً أو سوراً يحجب أضواء الفكر الجديد. فقد استطاعا أن يطبعا القيم الشعرية السائدة بطابع الأصالة[١٨].

[١٧] ينظر: مرايا جديدة: ٢٠ ٢١.

[١٨] ينظر: المصدر نفسه: ٢٠.

وهكذا، يختم مقالته بتقييمه الجواهري بأنه شاعر الجدة في قلب الموروث، ومجسد المرحلة التي عاش فيها.

بهذا، نجد الناقد يتحول من منهج إلى آخر، بحسب طبيعته وثقافته، وطبيعة المادة الأدبية؛ فهو يتحدث عن البنية الفنية . ولا سيَّما الإيقاع . بجانب حديثه عن المضمون، وأثر البيئة في إنتاج النص، والظروف التاريخية والاجتماعية والسياسية، لتكوِّنَ أساساً في آلياته النقدية التي كان يجهر بها، وعدها آلية حرة، لا تخضع لقوالب مهيمنة، تضيق بها نفس الناقد، ويضيق بها النص؛ فكان هذا النقد الانطباعي الجديد، الذي يشير إلى صيرورة الموضوعي ذاتياً، والذاتي موضوعياً؛ ليكون إبداعاً على إبداع . من وجهة نظر الناقد عبد الجبار عباس.

المصادر

ـ ج. س، د. علي جواد الطاهر، وزارة الثقافة والإعلام، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ١٩٩٧.

. الحبكة المنغمة، عبد الجبار عباس، إعداد: د. علي جواد الطاهر، عائد خصباك، وزارة الثقافة والإعلام، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ١٩٩٤.

ـ الفن خبرة، جون ديوي، د. زكريا إبراهيم، مراجعة: د. زكي نجيب محمود، القاهرة ١٩٦٣.

ـ المذاهب النقدية، دراسة وتطبيق، عمر محمد الطالب، دار الكتب للطباعة والنشر ١٩٩٣.

ـ مرايا جديدة، عبد الجبار عباس، منشورات وزارة الثقافة والإعلام العراقية، دار الرشيد للنشر، بغداد ١٩٨١.

ـ مقدمة في النقد الأدبي، د. علي جواد الطاهر، منشورات المكتبة العالمية، بغداد ١٩٨٣.

. النقد الأدبي، كارلوني وفيللو، م عويدات، بيروت ١٩٨٤.

. النقد والنقد الأدبي، رشاد رشدي، دار العودة، بيروت ١٩٧١.